الباب الثانى
مكة وقريش فى التاريخ واللغة

وتاريخ مكة الحقيقى يبدأ أيام قصى بن كلاب بن مرة القرشى الذى تولى أمر مكة حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى أما ما قبل ذلك فليس لدينا ما نعتمد عليه فى إثباته أو نفيه غير روايات الإخباريين وهم إسلاميون أو مخضرمون ، والمدة بعيدة بينهم وبين هذه العهود بخلاف الأمر فى حالة قصى وقبيلة قريش التى استقرت فى مكة ونهضت بها وجعلت منها مدينة ذات مركز اقتصادى ودينى وأدبى ممتاز وأصبحت فى عهدها تتمتع بتوجيه عربى عام فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع حين ظهر الإسلام .

وبين قصى وظهور الإسلام لا تزيد عن مائة وخمسين عاماً وهى مدة كانت حال قريش فيها منفصلة فى مكة ولا يمكن أن تنسى فيها الأحداث وبخاصة إذا قدرنا ما للذاكرة العربية من قوة وما لقيمة التمسك بالنسب ولحمة الدم من سلطان يجعل الناس يحتفظون بذكر آبائهم والأحداث التى ارتبطت بهم وقد يعطون ذلك بعض المبالغة ولكنا على أى حال نستطيع من مختلف الروايات أن نصور الوضع تصويرا نقرب به كثيراً من الحقيقة إن لم نصل إليها .

الفصل الأول
تاريخ مكة

ويروى لنا التاريخ أن مكة قد عرفت من أحقاب طويلة ممضة فى القدم حتى قبل عهد إبراهيم عيه السلام فقد كانت الكعبة مثابة للناس قبل بناء إبراهيم وبالتحديد منذ أن هبط آدم من السماء وبنى فيها البيت ...

ومن جهة أخرى فقد ثبت أن مكة قد استقبلت هجرات سابقة من بلاد العرب المختلفة تعددت فيها أنواع المهاجرين من أجناس البشر .

كما تدل الدراسات الجيولوجية التى أجراها الباحثون أن مكة وما حولها من مساحات تشمل جزيرة العرب التى كانت فى عهد من عهود التاريخ المجهولة مروجا خضراء آهلة بالسكان لأن غيوم الرياح الغربية الشمالية كانت تصل إلى الجزيرة العربية قبل أن تفقد رطوبتها فتنهال الأمطار على قممها العالية وتجرى فى وديانها الأنهار وتروى أراضيها وتسقى مروجها

غير أن كثيراً من المؤرخين اعتبروا أن هجرة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام إلى مكة بداية واضحة لتاريخ مكة لأن أهم ملابسات الهجرة وظروفها وردت واضحة فى القرآن الكريم .

والمعروف أن إسماعيل قدم مكة وهى إذ ذاك فلاة يثبت فيها السلم والمر وبها ناس يقال لهم (العماليق) وكان البيت أو الكعبة يومئذ ربوة حمراء .

وقصة إسماعيل وأمه هاجر وقدومهما إلى مكة معروفة ، فبعد أن ضاقت سارة زوجة إبراهيم عليه السلام بجاريته هاجر وابنها طلبت من زوجها أن يقصى الولد وأمه ، وقد كانوا جميعا ينزلون فى مشارف الشام فارتحل عنها ومعه إسماعيل وهاجر ليبلغا البقعة التى اختارها الله لمنزل

إسماعيل فيضع إبراهيم وديعته في ظل دوحة في بطن الوادى من مكة على خطوات من الربوة الحمراء حيث رفعت قواعد البيت فيما بعد : يقول تعالى :

" وإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ من البَيْتِ وإسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ومِنْ ذُرِّيَّتِنَا أمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " البقرة / ١٢٧ـ ١٢٨

ثم عاد إبراهيم راجعاً إلى داره واتبعت هاجر أثره قليلاً ثم قالت إلى من تتركنى وابنى ؟ قال : " إلى الله عز وجل "

قالت :

" إذا لن يضيعنا الله أبدا وهو أرحم الراحمين ".

أجل لقد تركها إلى الله تعالى وقد رأينا قدرته جل وعلا تتجلى في هذا العالم الزاخر من ذرية إسماعيل ورأينا تلك الدوحة التى أظلته يوماً تنبثق عنها أمة كان لها كيانها وكان لها دورها في فتح العالم وكشف حجب الظلام ونشر الدين وكانت هذه القلوب المؤمنة الموحدة ثمرة دعوته المباركة قال تعالى :

" رَبَّنَا إنِّي أسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " إبراهيم / ٣٧

ولما اشتد بهاجر العطش وتصايح وليدها إسماعيل يبغى شربة ماء نظرت ما حولها وسعت في الأرض تبحث عن ماء تطفئ به حرها وتروى غليل ابنها وتكرر سعيها وهرولتها في وسط الوادى بين جبلين هما (الصفا والمروة) حتى فعلت ذلك سبعا وعندها سمعت صوتا ثم خرج لها جبريل عليه السلام فاتبعته حتى ضرب برجله الأرض فظهر ماء فوق

الأرض فكانت (زمزم) بل كانت مكة وكانت هذه القبائل من عدنان ثم كانت قريش وكان بنو هاشم ومنها سطع نجم أضاء ثناه مشارق الأرض ومغاربها وكان الإسلام وكانت أعلامه ورياته التى خفقت فيما بعد فى أكبر وأوسع بقاع العالم .[1]

---

[1] اخبار مكة للأزرقى تاريخ مكة / أحمد السباعى

obeikandl.com

الفصل الثانى
قريش فى اللغة

ولعله من المفيد أن نلقى الضوء على اسم قريش قبل أن نذكر أصل تجمعهم ولم يصل الباحثون لرأى حاسم فيما يتصل باسم قريش وللطبرى نص طويل [1] يفهم منه أنه اسم شخص بل اسم سمكة ربما كانت (طوطم)[2]، قريش أو صفة أطلقت على بعض زعمائها الأولين مثل النضر بن كنانة ، وقد أجمل الطبرى ذلك فى قوله :

" سميت قريش قريشا بقريش بن بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة ، وبه سميت قريش قريشا لأن عير بنى النضر كانت إذا قدمت قالت العرب : قد جاءت عير قريش : قالوا : " وكان قريش هذا دليل بنى النضر فى أسفارهم وصاحب نصرتهم وكان له ابن يسمى بدرا "

وقال ابن الكلبى :

" إنما قريش جماع نسب ليس بأب ولا أم ولا حاضن ولا حاضنة "

وقال آخرون : إنما سمى بنوا النضر بن كنانة قريشا ، لان النضر بن كنانة خرج يوما على نادى قوق ، فقال بعضهم لبعض : انظروا النضر كأنه جمل قريش وقيل : إنما سميت قريش قريشا بداية تكون فى البحر تدعى القرش فشبه بنو النضر بن كنانة بها ، لأنها أعظم دواب البحر قوة وقيل : أن النضر بن كنانة كان اسمه قريشا.

---

[1] الطبرى جـ ٢ / ١٨٧ ابن حزم ـ جمهرة أنساب العرب / ١٠ مصعب الزبيرى نسب قريش / ١٢ ابن دريد الاشتقاق / ١٨ أبو الفرج الأصبهانى الأغانى جـ ١ / ١٢ الأزرقى جـ ١ / ٦١ .

[2] طوطم من الطوطمية : عبادة بدائية يعتقد من الناس أنهم شيئا معينا ـ حيوان مثلا من أصل واحد ويتخذونه رمزا معبودا لهم ، ولهم طوطم عام وآخر فردى لكل إنسان فى القبيلة (راجع د / على عبد الواحد وافى) " الطوطمية " دار المعارف ـ مصر .

وقيل : " بل لم تزل بنو النضر بن كنانة يدعون بنى النضر حتى جمعهم قصى بن كلاب " فقيل لهم : " قريش من أجل التجمع وهو التقرشى " .

فقالت العرب : " تقرش بنو النضر أى تجمعوا " .

أو قيل : " إنما قيل قريش ، لأجل أنها تقرشت عن القارات ".

وعن محمد بن سعد : سميت قريش قريشاً ، من اجتمعت إلى الحرم من تفرقها فذلك التجمع التقرشى ، قال عبد الملك : ما سمعت هذا ولكن سمعت أن قصيا كان يقال له القرش ولم يسم قريش قبله .[1]

وفى لسان العرب يقول ابن منظور : [2]

" وقريش دابة فى البحر لا تدع دابة إلا أكلتها فجميع الدواب تخافها . وقريش قبيلة سيدنا رسول الله ﷺ أبوهم النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى دون ولد كنانة ومن فوقه ".

وفى حديث ابن عباس فى ذكر قريش قال : هى دابة تسكن البحر تأكل دوابه .

قال الشاعر :

وقريش هى التى تسكن البحر * بها سميت قريش قريشا

وقيل : " سميت بذلك لتقرشها " أى تجمعها إلى مكة من حواليها بعد تفرقها فى البلاد حين غلب عليها قصى بن كلاب وبه سمى قصى مجمعاً .

وقيل : " سميت بقريش بن مخلد بن غالب بن فهر كان صاحب عيرهم " فكانوا يقولون : " قدمت عير قريش وخرجت عير قريش " .

وقيل : سميت بذلك لتجرها وتكسبها وضربها فى البلاد تبتغى الرزق .

---

[1] انظر ياقوت ومعجم البلدان ٥/ ١٨٣ ـ ١٨٥ .

[2] انظر : أخبار نكة . للأورقى ج١ ص٣٢ وما بعدها ـ معجم البلدان : لياقوت (مادة كعبة ج٨ ص ٤٦٣ وما بعدها .

وقيل : " سميت بذلك ، لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع " وزرع من قولهم : فلان نيقرشي المال أى يجمعه .

وقال سيبويه : " ومما غلب على الحي قريش " قال : " وإن جعلت قريشا اسم قبيلة معربى " قال غبر بن الرفاع يمدح الوليد بن عبد الملك :

غلب المساميح الوليد سماحة * وكفى قريش المعضلات وسادها

وإذا نشرت له الثناء وحدته * ورث المكارم طرفها وبلادها .

وكان يقال لقصى بن كلاب القرشى ولم يسن قريش قبله فحاز قصى شرف مكة وأنشأ فيها دار الندوة وفيها كانت قريش تقضى أمورها .

ولما جمع قصى قريشا بمكة سمى مجمعا وفى ذلك يقول خذاعة بن غانم الجمحى يمدحه :

أبوهم قصى كان يدعى مجمعا * به جمع الله القبائل من قهر .

هم نزلوها والمياه قليلة * وليس بها إلا كهول بنى عمر .

ويقال : " من أجل تجمع قريش إلى قصى سميت قريش قريشا "

obeikandl.com

الفصل الثالث
قريش في التاريخ

وتحقق دعاء خليل الله إبراهيم فبارك الله في ذريتهما وتوسعت الأسرة الإبراهيمية العربية ، فقد صاهر إسماعيل جرهم .[1]

وكانوا من العرب العاربة ، وبارك الله في ذرية إسماعيل حتى كان منه عدنان وتناقلت العرب العدنانية أنسابها وهو أكثر الأنساب العربية صحة وحفظا وتداولاً .

وكثر أولاد عدنان ، اشتهر منهم معدين عدنان وتبع في أولاده مضر . وتبع من أولاده فهر بن مالك .

وسمى أولاد فهر بن مالك بن النضر " قريشاً " وغلب هذا الاسم على جميع الأسماء فاشتهرت هذه القبيلة بـ " قريش " وأقر أهل العرب كلهم بعلو نسب قريش ، والسيادة وفصاحة اللغة ، ونصاعة البيان ، وكرم الأخلاق والشجاعة والفتوة ، وذهب ذلك مثلا لا يقبل نقاشاً ولا جدلاً .[2]

قصي بن كلاب وأولاده :

ومن أولاد فهد قصي بن كلاب .

وظل أمر مكة لجرهم حتى غلبهم على ذلك خزاعة وكانت سدانة البيت فيهم إلى أن عظم شأن قصي بن كلاب وظهر فضله فانتقلت إليه واقتضت له قريش وأحلوا خزاعة من مكة وتم له أمر مكة ، وكان سيداً مطاعا ، كانت إليه حجابة البيت وعند مفاتيحه فلا يدخل أحد إلا بإذنه وسقاهم

---

[1] قيل : إن جرهم كانت أولى القبائل العربية التي أقامت بمكة ، وقد استهواها للمقام هناك وجود ماء لا ينقطع ، وجاء في بعض الروايات أنها كانت هناك قبل أن يترك إبراهيم زوجه هاجر وابنه إسماعيل في هذا الوادي .

[2] اقرأ للتفصيل السيرة النبوية لابن هشام ق أو كتب السيرة والأنساب

زمزم والرفادة والندوة التى يجتمعون فيها للمشورة ، والرأى واللواء فى الحرب ، فحاز شرف مكة كله .

وتنبل فى أولاده عبد مناف ، وكان هاشم أكبر أبناء والده عبد مناف وكان كبير قومه ، وكانت عنده السقاية والرفادة وهو والد عبد المطلب جد الرسول ﷺ وقد ولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطلب بن عبد مناف وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه وأحبه قومه وعظم خطره فيهم .

فيذكر ابن هشام أن قصى بن كلاب هو الذى غلب على أمر مكة وجمع قريش فيقول : قال ابن اسحاق : " فلما كان ذلك العام ، فعلت صوفه كما كانت تفعل وقد عرفت ذلك لها العرب وهو دين فى أنفسهم فى عهد جرهم وخزاعة وولايتهم . فأتاهم قصى بن كلاب بمن معه من قومه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة " ، فقال : " لنحن أولى بهذا منكم فقاتلوه ، فاقتتل الناس قتالا شديداً ثم انهزمت صوفة ، وغلبهم قصى على ما كان بأيديهم من ذلك " .

<u>قصى يقاتل خزاعة وبنى بكر :</u>

وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصى ، وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صوفة وأنه سيحول بينهم وبين الكعبة وأمر مكة . فلما انحازوا عنه بادأهم وأجمع لحربهم ، وخرجت له خزاعة وبنو بكر فالتقوا ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى كثرت القتلى فى الفريقين جميعا ، ثم إنهم تداعوا إلى الصلح وإلى أن يحكموا بينهم رجلا من العرب ، فحكموا يعمر ابن عوف بن كعب بن عامر بن لبيب بن بكر بن عبد مناف بن كنانة ، فقضى بينهم بأن قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة ، وأن كل دم

أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر : موضوع يشدخه تحت قدميه ، وأن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة . ففيه الدية مودادة ، وأن يخلى بين قصى وبين الكعبة ومكة .

فسمى بعمر بن عوف يومئذ : الشداخ ، لما شدخ من الدماء ووضع منها.

<u>قصى يتولى أمر مكة :</u>

قال ابن إسحاق : " فولى قصى البيت وأمر مكة " ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه . إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه ، وذلك أنه كان يراه ديناً فى نفسه لا ينبغى تغييره ، فأقر آل صفوان وعدوان والنساءة ومرة بن عوف على ما كانوا عليه حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله .

فكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكاً أطاع له به قومه ، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة ، والندوة : واللواء . فحاز شرف مكة كله وقطع مكة وُباعاً بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها .

ويزعم الناس أن قريشاً هابوا شجر الحرم فى منازلهم فقطعها قصى بيده وأعوانه فسمته قريش . مجمعاً لما جمع من أمرها وتيمنت بأمره ، فما تنكح امرأة ، ولا يتزوج رجل من قريش ، وما يتشاورون فى أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء كحرب قوم من غيرهم إلا فى داره . يعقده لهم بعض ولده ، وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا فى داره . يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها إلى أهلها .

فكان أمره فى قومه من قريش فى حياته ، ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره . واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضى أمورها .

قال ابن هشام : قال الشاعر :

قصى لعمر كان يدعى مجمعا * به جمع الله القبائل من فهر .

قال ابن إسحاق : " حدثنى عبد الملك بن راشد عن أبيه " قال :
" سمعت السائب بن ضباب صاحب المقصورة يحدث أنه سمع رجلا يحدث عمر بن الخطاب وهو خليفة حديث قصى بن كلاب وما جمع من أمر قومه وإخراجه خزاعة وبنى بكر من مكة ، وولايته البيت وأمر مكة ، فلم يرد ذلك عليه ولم ينكره .[1]

بنو هاشم :

وكان بنو هاشم واسطة العقد فى قريش ، وإذا قرأنا ما حفظه التاريخ وكتب السير من أخبارهم وأقوالهم (وهو قليل من كثير جداً) ، اسند للنابه على ما كان يمتاز به هؤلاء من مشاعر الإنسانية الكريمة ، والاعتدال فى كل شىء ورجاحة العقل وقوة الإيمان بما للبيت من مكانة عند الله ، والبعد عن الظلم ومكابرة الحق ، وعلو الهمة ، والعطف على الضعيف والمظلوم ، والسخاء والشجاعة ، وما تشتمل عليه كلمة " الفروسية " عند العرب ، من معان كريمة وخلال حميدة ، السيرة التى تليق بأجداد الرسول الكريم ﷺ وتتفق مع ما كان يفضله ويدعو إليه من مكارم الأخلاق ، غير أنهم عاشوا فى ومن الفترة وسايروا آباء قومهم ، فى عقائد الجاهلية وعباداتها .

---

[1] الروض الأنف للهيل فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام ح ١ صـ ١٤٧ ـ ١٤٩.

obeikandl.com

الفصل الرابع

مركز مكة الديني

تضرب مكة في القدم إلى إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وهي قصة البلاد الحجازية ولم يكن يأوى أحد قبل إبراهيم وابنه إسماعيل لأنها واد غير ذى زرع اللهم للصاليق والهكسوس فقد كانوا يسكنون الحجوب في شمالى مكة ثم جاوروا إسماعيل وأمه لما أتاح الله لهما بئر زمزم وكان إبراهيم يختلف إليهما من حين لأخر إذ كان يسكن فلسطين ثم أمره الله أن يبنى البيت الحرام ويجعله " مصلى " :

" وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ" البقرة/ ١٢٥

" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " البقرة/ ١٢٦ ـ ١٢٩

فلما أتما بناءها أمر الله إبراهيم أن ينادى الناس ليحجوا هذا البيت ويقصدوه بالتعظيم .

" وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ " الحج/ ٢٧ ـ ٢٨

مركز مكة السياسي :

كان يحكم مكة الأشراف مجاوروا البيت الحرام وكانوا يتولون خدمة البيت وقاصديه فكانوا بحكم مركزهم الديني مهيبين في عين الناس لا تتطاول إليهم العيون ولا تنال منهم الظنون لا يحاربون ولا يتحاربون من دخل بلدهم كان أمناً حتى لقد يلقى الرجل قاتل أبيه أو ابنه أو أخيه وهو بالحرم فلا يرفع له رأساً ولا يضمر له شراً احتراماً للبيت الحرام والبلد الحرام لهذا هرع الناس من كل فج إلى مكة يطوفون حول الكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ويقبلون الحجر الأسود حيث يمثلون الطاعة والإقرار بالعبودية لله ويؤدون مناسكهم أمنيين مطمئنين وأهمها الوقوف بعرفات وهو أشبه بمؤتمر هام وهناك كانوا يختلطون ويتزاحمون على اختلاف لهجاتهم وتباين قبائلهم .

مركز مكة التجاري :

لا عجب أن يكون بلد كمكة قبلة العرب ومفخرهم وملاذهم ومثابتهم الحركة فيها لا تنقطع والرحلة إليها دائمة لا تمتنع تضرب إليها آباط الإبل يستحثها السوق إليها وتساق إليها القوافل فلا يرثى لها من حضن أو كلالة حتى تصل إلى غايتها لا عجب أن تكون سوق التجارة فيها نافعة وصفقتها رابحة غير خاسرة وإذا كان رواج التجارة أو كسادها يرجع إلى ما يسمى " بالعرض والطلب " فإن تجارة مكة لا يتطرق إليها الكساد والبوار بل يغنم كل من يؤمها للحركة الدائبة فيها ولمركزها الجغرافي الذي جعلها بحاجة دائمة إلى مدد غيرها ناهيك بالألوف التي كانت تفد إليها من الرحلات المتعددة شتاء إلى اليمن وصيفاً إلى بُصرى وحُوران وربما ضربوا إلى الحبشة وفارس ، كل أولئك جعل لها مركزاً تجارياً ممتازاً .

فكانت عنايتها بالتجارة تفوق كل شرفائهم وذو المكانة فيهم يتقدمون صفوف القوافل الغالية والرابحة بين مكة والبلدان التى لها معها علاقة تجارية ولذا أنزل الله فيهم سورة أبانت عن حرصهم على التجارة وعنايتهم بها وسميت باسمهم :

" لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف " قريش/١-٤

وقال تعالى :

" أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم "العنكبوت /٦٧

وقال تعالى :

" وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا " القصص/٥٧

وكانوا بحكم مركزهم الدينى محترمين لا يتعرض لهم أحد بسوء فى حلهم وترحالهم فزكت تجارتهم واتسعت مواردهم واشتدت بها عنايتهم .

فلما جاء الإسلام أباح التجارة فى الحج فليس هناك حرج فى ذلك :

" ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين "

البقرة/١٩٨

وكانت أشهر الحج عندهم أشهر حرما ، يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب البيت وداخل حدود الحرم والناس يهرعون إلى هذه الأسواق ويؤمونها من جهات الجزيرة البعيدة ليقضوا منها حاجتهم ، ويتزودوا لقومهم ، وقد ذكرت أسواق كانت فى مكة يستدل بها على ما وصلوا إليه من مدنية وتطور . منها سوق العطارين ، وسوق الفاكهة ، وسوق الرطب ، وكان مكان للحجامين والحلاقين وكانت رحبة واسعة

كانت تباع فيها الحنطة والسمن والعسل والحبوب يحملها العير من الخارج وكانت اليمامة ريف مكة [1]

وكان زقاق للحذائين ، وسوق للبزازين . وكانت لأهل مكة منتزهات ينتجعها المكيون فى الأصائل ، من شهور القيظ وكانت المتنعمون فيهم يشتون بمكة ويصطافون بالطائف ، وكان كثير من فتيانهم تشتهر بالأناقة فى الحياة والتجمل فى اللباس وكانت كسوة بعضهم تقوم عينات من الدراهم ولما نشطت الحركة التجارية فى مكة ، فكان تجارها يتجولون فى بلاد كثيرة من إفريقيا وأسيا ، ويحملون من كل بلد ما يستطرف ويستظرف فيها ، وما تشتد إليها الحاجة فى بلادهم .

فكانوا ينقلون من أفريقيا الصمغ ، والعاج ، والتبر ، وخشب الأبنوس

ومن اليمن الجلود والبخور والثياب ، ومن العراق التوابل ومن حاصلات الهند الذهب ، والقصدير ، والحجارة الكريمة ، والعاج وخشب الصندل والتوابل والزعفران ، ومن مصر والشام الزيوت والغلال والأسلحة والحرير والخمور

وكانوا يرسلون إلى بعض الملوك والأمراء ما يُستطرف من بضائع مكة وكان من أعجب ما يختار منها الأدم ، وهى الجلود ، كما فطنت قريش حين بعثت إلى النجاشى ، ملك الحبشة ،عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل ، ليستردا من هاجر من المسلمين إلى الحبشة ، فأرسلوا معهما من الهدايا مما يستطرف من متاع مكة وكان الأدم .

وكانت من النساء تاجرات ، لهن نشاط فى إرسال القوافل التجارية إلى الشام وغيرها ، اشتهرت فيهن خديجة بنت خويلد ، والحنظلة أم أبى جهل يشير إلى ذلك

---

[1] لذلك لما منع ثمامة بن أثال . سيد بنى حنيفة . حمل الحنطة إلى مكة بعد ما أسلم ، جهدت قريش وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يكتب إلى ثمامة يخلى إليهم حمل الطعام . ففعل رسول الله ﷺ (زاد المعارج / ٣٧٧ رواه مسلم فى صحيحه) .

قولـه تعـالى :

" للرِّجال نصيبٌ ممّا اكْتسبُوا وللنِّساء نصيبٌ ممّا اكْتسبْنَ " نساء/٣٢

الحالة الإقتصادية والمكاييل :

وهذا فاقت مكة فى التجارة وأثرى كثير من أبنائها وتضخمت رؤوس أموالهم ، يدل على ذلك أن عير قريش التجارية التى كانت عائدة من الشام عند غزوة بدر بلغت ألف بعير ، وبلغ المنقول على أثقالهم خمسين ألف دينار .

وكانوا يتعاملون بالعملة الرومانية البيزنطية والعملة الإيرانية الساسانية وكانوا يستعملون الموازين فى أسواقهم والمكاييل منها الصاع والمد والطل والأوقية والمثقال ويعرفون من مفردات أثقالهم أنواعا كثيرة وعندهم علم بالحساب اعتمد عليه القرآن فى ذكر السهام والفرائض [1]

الصناعات والثقافة والآداب فى مكة :

ولم تكن للصناعات مكانة كبيرة عند أهل مكة ، بل كان عندهم نوع احتقار لها ، وتعبر منها ولم يباشرها فى عامة الأحوال إلا الموالى وأبناء العجم إلا أنه قد وجد بعض صناعات كانوا مضطرين إليها ، ومارسها بعض أبناء مكة والعرب ، فقد روى أن حباب بن الأرث كان قينا يعمل السيوف ، وكانوا يلجأون إليه فى صناعة البتار وكان لابد منه إلى عمال من الروم أو الفرس . وكان منهم كتاب يعرفون الكتابة والقراءة وأن كانت الأمية عالية عليهم ولذلك سماهم القرآن بـ " الأميين " فقال تعالى :

" هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ " جمعة/٢

---

[1] نفس المرجع السابق ١٠١ ـ ١٠٣.

وكانت مكة وأهلها مثلا في الجزيرة العربية في سلامة الذوق والظرف والأناقة شأن العواصم والمدن الرئيسية في كل قطر ، عريقة في الآداب ، أما لغتهم فكانت هي الميزان وهي المرجع وعليها الاعتماد في سائر أطراف الجزيرة ، وكانوا أبلغ العرب وأفضلهم وأصحهم تعبيرا ونطقا ، وأبعدهم عن الهجنة أوالرطانة وتأثير الاختلاط بالعجم ، وكان حظهم من تناسب الأعضاء واعتدال الخلق والخلق والالتزام وحسن الشارة ، أكثر من النواحي الآخرة حتى كانوا شامة بين الناس يجمعون بين الصفات التي يسمى مجموعها بـ " الفتوة والمروءة " وتغنى بها شعراء العرب وخطباؤهم لذلك كانوا أئمة الناس في الشر والخير .

وكان أكثر عنايتهم بالإنسان وأخبارهم ثم بالشعر ثم بالنجوم والأنواء وشيء يسير من الطب يقوم على التجربة ، والتناقل وشيء كثير من حلية الخيل والمعرفة الدقيقة بأعضائها وصفاتها والتفرس بالرجال والخيل وشاعت فيهم طرق للعلاج ، كالكي ، والبتر ، والفصد ، والحجامة وتناول الأدوية .

القوة الحربية :

أما قوة مكة الحربية ، فكانت قريش تؤثر السلم والهدوء في عامة الأحوال إذا تركت ، وشأنها شأن الشعوب والمجتمعات التي أكبر اعتمادها في الكسب والمعاش على التجارة ، وبسير القوافل ، وتنظيم الأسواق ، وتوجه الرواد من كل صوب إلى بلدها ، والتقائهم التقاء يفيدها إجلالاً دينياً وفائدة اقتصادية ، ويدر عليها الأرزاق الكريمة ، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله تعالى "

" فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ " قريش / ٣ ، ٤

لذلك كانت قريش ما لم تتحد عقيدتها ولم تثر غيرتها الدينية أو القبلية تؤمن بمبدأ " التعايش السلمى " ولكنها رغم كل ذلك كانت قوة حربية يحسب لها الحساب ، وكانت شجاعتها مضرب المثل ، وكانت مشهورة بالفروسية العربية و" الغضبه المضربه " معروفة فى جزيرة العرب وادابها وأمثالها .

ولم تكتف قريش بقوتها الذاتية فى الحرب ولكنها تستخدم قوة الأحابيش وهم بطون من القبائل العربية الضاربة حول مكة ، من كنانة وخزيمة بن مدركة ، وخزاعة تخالفوا مع قريش ، وكان لقريش عدد كبير من العبيد والموالى ، الذين كانوا يقاتلون فى صفوفها ، فكانت تستطيع أن توجه إلى القتال بضعة آلاف مقاتل وقد استطاعت أن تجمع عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الأحزاب ، وهى أكبر قوة حربية عرفها تاريخ الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى .[1]

أثر هذه الأحوال فى لغة قريش :

مركز مكة الدينى والسياسى والتجارى الذى رفعها إلى مقام الزعامة فى الأمة العربية جعل للغتها الزعامة على لغات العرب أيضا فالعرب الذين كانوا يؤمون مكة فى المواسم ويختلطون بأهلها ثم يتقلبون إلى ديارهم والخانفون الذين كانوا يلجئون إلى حمايتهم فيكون لهم فيها الملاذ الأعلى والحمى المنيع والتجار الذين كانت تسبل بأعناق مطيهم الأباطح غادين رائحين كل أولئك ما كانت مهنتهم لتقتصر على ما إليه قصدوا بل كانوا فوق ذلك يتخرجون فى مدرسة مكة اللغوية فتتصف ألسنتهم وتصقل لهجاتهم وتتهذب لغتهم فإذا ارجع أولئك البعوث إلى أقوامهم رجعوا بفضل كبير وتجديد فى لغتهم عظيم ذلك أن لغة مكة كانت هى

---

[1] السيرة النبوية للندوى / ١٠٦ & ١٠٧ .

المثل الأعلى للغاتهم لما علمت من مكانتها الدينية والسياسية والتجارية تلك المنزلة التى مكنت لأهلها أن يختلطوا بكل القبائل فيأخذوا أحسن ما عندها من ألفاظ فيها كثير من الحوش أو المبتذل أو الغريب الذى يكد لغتهم ويجهد الخاطر .

هذه العملية عملية المحو والإثبات فى لغة قريش أو عملية التهذيب والتصنعية المتكررة جعلتها سهلة المنطق خفيفة على السمع حسنة الجرس فكانت المثل الأعلى للغات العربية وكانت لها عليها فضل الأستاذية فلا عجب أن كانت هذه المنزلة فى الجاهلية مرشحة لها أن تكون سيدة اللغات فى الإسلام نزل بها القرآن الكريم فجعلها لغة الدين والعلم إلى اليوم .[1]

كبرى مدن الجزيرة وعاصمتها الروحية والاجتماعية :

وبهذا المركز الدينى والمكانة الاقتصادية وقيادة النشاط التجارى والتقدم فى المدنية والآداب أصبحت مكة كبرى مدن الجزيرة العربية وبدأت تنافس صنعاء اليمن فى زعامة الجزيرة بل إنها تفوقت عليها بعدما حدث باليمن من استيلاء الحبشة عليها وتملك الفرس لها فى منتصف القرن السادس المسيحى وفقدت مملكة الحيرة ومملكة غسان الشىء الكثير من العظمة والأبهة ،فأصبحت مكة بعد ذلك كله هى عاصمة جزيرة العرب الروحية والاجتماعية من غير منافس ولا مشارك .[2]

---

[1] مجلة منبر الإسلام ـ العدد ١٢ لسنة ٣٢ ذو الحجة ١٣٩٤ هـ سبتمبر ١٩٧٤ م .

[2] السيرة النبوية للندوى – ١٠٧ .